امتحان زوجة

للكاتب الفرنسي ابيل سوتز

بقلم الأستاذ محمد عيسى

لست هذه أيها القارئ العزيز قصة غرامية ، على نحو ما يوجد عادة في تلك القصص من أخبار الجن والشياطين ، عن أنس الحب اللائي يمشين في ضوء القمر ، ولكنك ستجد فيها ما هو أعجب من ذلك ، ستجد قصة امرأة جمعت من الشمس إشراقها ، ومن الشهد حلاوته ، ومن النساء جميعا حلة الإخلاص والوفاء.

تلك هي سيدة قصر « كرجان » ، حرم النبيل أوليفيين دو كرجان ، التي كانت على سمو مكانتها ، وعلى ما أسلفنا من حسنها الباهر ، أما للفقراء جميعا وربة من رباب الخير والإحسان . فهي لا تنتظر حتى يقصد إليها المحتاجون طالبين ، بل تختلف إلى مساكنهم وأكواخهم لتسبغ عليهم العطايا ولا تبخل عليهم بالنصح . فكان يحزنها بأن تضاعف نصحها ، والنصح عليهم كيف يحفظون ذلك المال ويتنفعون به . وكان القصر بعد ذلك ملجأ كل من يتعطل عن العمل ، فإذا كان شابا أرسل للعمل في الحقول ، وإذا كان فتاة ألحقت بخطائر الماشية ، وإذا كان شيخا أو كهلا دفع إليه الكتان ووكل إليه غزله. ثم ترسل الخيوط إلى مهرة النساجين يصنعون منها الأقمشة

به نصره .

استراح قليلا وأحس أنه إن قلق سيستطيع أن يجد هنا موئلا للهدوء !!

كانت عيناه عالقتين بجمجمة وضعت على أعلى الخزانة ، فرأى عظمها الخاوي نهاية لكل رأس . والعينين بركتين ، والفم تجويفا قبيحا ، والأنف مدخلا يوحي بالفناء ! فقال في نفسه : هيه ... إنها هي الأخرى جمجمة امرأة ... لأنها صغيرة الحجم ...

وابتسم في حسرة وهز كتفه برفق ثم قال : حائر ... حائر أنها كانت مثل جمالات ... من يدري ؟ !

ثم أطفأ النور وتحسس طريقه إلى الفراش مرة أخرى

محمد عبد الحليم عبد الله

مختلفة الأشكال والأحجام ، ثم تكدس تلك الأقمشة في أقبية القصر الفسيحة ، إذ ليس لصنعها من هدف إلا إيجاد العمل للعاطلين ...

ومن محاسن المصادفات أن مسيو أوليفيين دوكرجان زوج السيدة — كان موافق على جميع أعمالها ، وقد صار ينظر بعينيها ويحس بإحساسها . وإنه ليبني على الشيء تصنعه قبل أن يراه ، ولا يخطر بباله أنها قد تخطئ أبدا . وكانت هي أول شاكر لهذه الثقة وأول عارف للجميل ، فلم تبرح تقول في مرحها المأثور إنها ما كانت لتخون أمانة زوجها حتى بطير الديك الحديدي الذي يزين برج كنيسة بريفان !

ثم عرض للزوج ما اقتضى رحيله إلى باريس ليمثل بين يدي ملك فرنسا وقتذاك — لويس الرابع عشر — فأقبل على زوجته طالبا منها أن ترافقه فقالت :

— وددت يا عزيزي لو تتركني ههنا وتذهب وحدك ، وإلا فماذا يكون من أمر هؤلاء اليتامى والمساكين بقتاتون من النزل عندنا ؟ لقد ألفت بهم وألفوا بي ولم يعد لهم سواي من نصير ... فاذهب وحدك يا أوليفيين وأرجو أن تعجل بالإياب

فنزل مسيو دوكرجان على طلب زوجته إذ كان ينظر بعينيها ويحس بإحساسها ، فرحل إلى العاصمة وحده بعد أن أوصاها بأن تكتب إليه وترسل رسائلها بمن ما يرسله أسقف سانت بول ، حتى تصل في أمان

واستغرقت رحلة مسيو أوليفيين إلى باريس ستة عشر يوما ، إذ كانت الرحلات من أشق الأمور في تلك الأيام

وقابل مسيو أوليفيين من قابل من بلاء البلاط الملكي فأكرموا وفادته واحتفوا به ، إلا أنهم أظهروا أشد العجب من أنه يأت بزوجته معه ، وقال أحدهم :

لا ريب أنها امرأة قبيحة عليظة لا تشرف

فقال واحد ممن يعرفون أمرها بل الحقيقة عكس ذلك . إنها ذات جمال حري في الناس بحري المثل . فقالوا :

لا ريب إذن أنه قد منعها من العين خوفه أن ترى بين بلاء البلاط من يفتنها عنه ...

وترامت هذه الشائعات إلى صاحب فغضر دوكرجان فاشتد غضبه وأعان على رؤوس القوم بأن سيدة كرجان هي آخر من تلجئ الزوج إلى مثل هذه الاحتياطات ... فقال البلاء وقد حملوا من الأمر مزحة :

قد كان لله في حواء ثقة أعظم من ثقته حين أودعها جنات النعيم !

فقال أوليفيين :

« إن فرنسيزا لا تحب أحدا سواى »

فقالوا : وكذلك حواء لم تعرها الشجرة المحرمة حتى بصرت بتفاحة الخير والشر

فاستعر الغضب فى صدر الرجل وهم بأن يستل سيفه لولا أن خاطبه أحد النبلاء بقوله :

« لا تحسبك تزعم لنفسك حكمة تفوق حكمة الخالق يا مسيو أوليفيين ...

وإذا كان الله قد عرض حواء للامتحان فجدير به أن يصنع مثل هذا بزوجك ... وهذا صاحبنا « داجوبون » الذى فاق الرجال حيلة فى فن الإغواء ، فأدخله إلى قصرك كى تراه زوجتك رؤية العين ، فإن ثبتت أمام صورته إغراء وعرفنا أنها أشرف النساء ... »

وكان من حسب قصر كرجان يفضل أن يحكم السيف بينه وبين هؤلاء النبلاء ، إذ عرف أن أمرين لا يعرضهما العاقل للامتحان : التنحر الجميلة وفضيلة النساء ... ولكنه رأى أنه لو رفض الخضوع للتجربة أثبت بذلك أنه يخاف مغبتها لضعف ثقته بزوجته ، فاضطر إلى أن يوافق على إرسال داجوبون إلى القصر ومعه رسالة يوصى فيها زوجته بإكرام مثواه ...

فرحل الليل واعدا أوليفيين بألا يدعه ينكوكما أكثر من شهر واحد ، وودعه أوليفيين وهو يصد نفسه عن الفتك به بجهد جهيد

وبلغ الكونت القصر فأحسنت فرنسيزا لقاءه واحتفت به كأنه أخ لها ، محققة بذلك وصية زوجها فى رسالته إليها . وزاحت تهيئ جميع الوسائل التى تدخل بها السرور إلى نفس ضيفها ، فهما إلا على سهوة الجياد فى الغابة لا يعودان إلا فى الشفق ، وهما ساهران للحديث والسمر ، وليس فى نفس سيدة كرجان إلا أن تقوم بحق الضيف وتحقق وصية زوجها الغائب

غير أن داجوبون لم يكن يريد بهذه الثقة فى تحقيق مكره ، فبدأ يثنى على جمالها ويحدثها بأنها أجمل من رأت عيناه ، فلم تجبه بغير الضحك . ورجعه أنها لم تصدقه بقسوة فراح يكاشفها بالحب ويتوسل إليها أن ترق لحاله وتأسو جراحه ، فلم تزد أيضا على الضحك . ثم إنه طلب منها الشريط الذى تم به شعرها فأعطته إياه ، وطلب الدبوس الذهبى الذى تزين به صدرها فلم تبخل به عليه ، ثم ألح فى طلب الخاتم الذى فى إصبعها فما وسعها أن ترد طلبه ...

وإزاء كل ذلك ظن داجوبون أنه قد نال مرامه ، فسألها أن تحدد له موعدا فى الليل ، ولكنها رفضت . فكرر التماسه مرة أخرى وباء بالرفض ، فلما كانت الثالثة قالت له :

لا أستطيع أن ألقاك فى حجرة المكان لوجود الخدم ، ولا فى حجرة الاستقبال لوقوفها على مرأى من الناس ، ولا فى مخدعى لوجود وصيفتى ، ولا فى الحديقة لمخافة البرد ، ولكن إذا تركتنى أجلس فى البيت الخشبى الصغير حيث المزل وخيوط الكتان فسأوافيك هناك عند نحت الأشجار »

قبل دانجورون وقد اشتد به الفرح وانتصر فلم يقو على الانتظار ، بل جمع الفرنك والدبوس والخاتم وضمنها صندوقا ووضع رسالة عن قرب عودته — وسلمها إلى رسول يحملها إلى باريس لقاء أجر طيب

ثم إنه ارتدى أفخر ثيابه وتضمخ بالعطر الزكى وجلس نفسه فى البيت الخشبى وانتظر . فما هى إلا ساعة حتى سمع أصوات بالقصر تعلو وقع أقدام تقترب ، وفتحت عليه نافذة صغيرة رأى فيها وجه فرنسيرا فكاد يخرج من جلده فرحا

* * *

لما كانت جريمة الغائب تشتبك على هذا الوجه فى قصر كرجان ، كان رب القصر فى البلاط الملكى تقتله السآمة ولا يمنعه من العودة إلا انتظار فترة الشهر المتفق عليها

ولما لم يبق بينها سوى خمسة أيام ، أقبل رسول الكونت إلى البلاط بالصندوق والرسالة . فما كاد مسيو أوليفيين يرى على زوجته حتى جمدت حركته وامتقع وجهه وبدا كأنه يحتضر ... ثم جاش فى صدره من الحقد والرغبة فى الانتقام ما غلب على ما بنفسه من الحزن واليأس ، فدعا بجواد من أسرع جياد فرنسا وانطلق به إلى القصر من فوره

ودامت الرحلة ستة أيام لم يتوقف الرجل فيها ليلا ولا نهارا إلا ليطعم الجواد حتى لا يتعثر . فلما كان اليوم السابع أدركت السعد ، فجأة وأوعدت ، وهبت عاصفة هوجاء تجتاح البلاد وتقتلع الأشجار اقتلاعا ، وكان مسيو أوليفيين قد بلغ كنيسة بريفان وانظر إلى برجها الشامخ فإذا به قد حطمته العاصفة

فقال فى نفسه :

— قد ظار دينك بريفان ... ومن هنا إلا أن يأتى زوجى قد خانتنى !

وحمز جواده بشدة فانطلق فى الليل الحالك يسابق العاصفة . ووقع بصره آخرا الأمر على مداخل قصر كرجان وقد ترامت فوق رءوس الدوح الشامخة ، فترجل عن الجواد الذى عطل جهد الشاق الأنفاس من نوافذه وأطلقه وقال :

— هيهات أن يغفر الله لعلين ... إذا قتلت هذا الجواد الشريف فى سبيل امرأة

خائنة !

وأوغل فى الغابة على قدميه حتى انتهى إلى باب القصر العريض فطرقه طرقا شديدا

وكانت فرنسيزا فى مخدعها فعرفت طرقات زوجها وهتفت فى فزع :

— يالهى ! هذا زوجى كرجان قد جاء !

وهرعت لتستوثق مما سمعت . ولم تكد تبصر زوجها حتى ألقت بنفسها بين ذراعيه

ولكن مسيو دو كرجان أسرع بالقبض على يديها وجرها إلى حجرة بالحديقة حيث وقف إزاءها لاهثا يقول وقد جحظت عيناه

— أين الكونت داجوبون ؟ أين هو أيتها المرأة الشريرة ؟

فتسمع وجه فرنسيزا وقالت وهى ترتعد :

— أستحلفك بالله يا أوليفيين ألا تظن بى سوءا ... لقد فعلت كل ما بطوق كى أمنع ما حدث

فقال دو كرجان وهو لا يكاد يقوى على النطق :

— وأخفقت فى منعه ؟

— لا تلم إلا صديقك هذا ... فلم يكد يطأ أرض المنزل حتى وقع فى هواى وأخذ يلاحقنى فلم يكف عنى لحظة واحدة

وقد طاوعته ولم تبخل عليه من وقتك بلحظة واحدة !

فأجابت فرنسيزا :

قد منحته أول الأمر بقدر ... منحته شريطا ، دبوسا ذهبيا ... فصاح زوجها !

— وخاتما !

— أجل ، قد أخذ الخاتم أيضا ... ولكن شيئا من ذلك لم يرد عليه ، فاضطررت إلى حبسه بالبيت الخشبى واعدة أن أوافيه هناك فى المساء ...

وهل زرت موعدك يا سيدتى ؟

ما وسعنى أن أحنث يا أوليفين .. فلما كان المساء قصدت إلى هناك ففتحت النافذة وقلت للكونت ...

— ماذا قلت له ؟

— قلت له إنه ينبغى أن يظل فى محبسه حتى تعود أنت

وبدا أن صاحب قصر كرجان لم يفهم قولها وهتف :

— ماذا قلت يا فرنسيزا ؟ هل حبست الكونت داجوبون ؟

— أجل ، واعدة أن أحل مسيو عندما ينتهى من نسخ كل ما يحويه الخزن من خيوط الكتان ...

وإن باستطاعتك أن تصغى إلى صوت المغزل ...

فأصغى مسيو دو كرجان وسمع .. أبد قولها

ثم روت له زوجته كيف أعلن

الكونت تمرده أول الأمر ورفض أن يتعلم صناعة الغزل ، فلم يجبره على الخضوع إلا منعها إياه عن الطعام ! ثم أخذ يتعلم مبادئ الصناعة حتى نجح فى صنع « فرش » جميل لم ترقط مثله جودة وإتقانا !

وأبى مسيو دوكرجان أن يصدق كلامها حتى قادته إلى نافذة البيت الخشبى ، فرأى الكونت بعينيه عاكفا على العمل وقد جعل قبعته العالية المزينة بالريش على رأسه فى حين تدلى السيف الرصع من جانبه !

فانفجأ عضب مسيو أوليفين فجأة وانطلقت منه ضحكة سرور مجلجلة ، فهب الكونت مبغوتا ليرى نفسه أمام غريمه وجها لوجه . غير أنه كان رجلا محنكا رابط الجأش فعرف كيف يعالج الموقف ، إذ أجاب عن ضحكة مسيو أوليفين بابتسامة مغتصبة وقال :

— قد خسرت الرهان يا مسيو دوكرجان !

فأجابه أوليفين :

— إذن فلتعد إلى سجنك من بلاء البلاط ، ولتخبرهم بالحقيقة التى كاد يريفها تعجلك بإرسال الشريط والدبوس والخاتم

فوعد داجويون بأن يقص الحقيقة الكاملة ، وبأن يرد ما أخذ من حلى السيدة ، ولكنها قالت له إنها قد أنعمت بها عليه اعترافا منها بمهارته فى أعمال الغزل والنسيج !

ومن ذلك الحين ذاعت فى المنطقة صناعة ذلك النوع من « المفارش » . فلم يزل إلى اليوم على الأفواه مثلا جاريا بأن أول تلك المفارش قد صنعته فى قصر كرجان يد نبيلة !

محمد عفيفى

اقرأ الرواية فى أول كل شهر وفى منتصفه ،
والرسالة فى صباح كل أحد من كل أسبوع
بدل اشتراك الرواية فى السنة ١٢٠ قرشا وبدل اشتراك
الرسالة ١٠٠ قرش وبدل اشتراكهما معا ١٨٠ قرشا